ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 26 يونيو 2019

التشيؤ الجنسي: كانط والمسألة الجنسية

رجاء حلواني

ترجمة: بدر الدين مصطفى

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019

All rights reserved © 2019

التشيؤ الجنسي:كانط والمسألة الجنسية[1]

تأليف: **رجاء حلواني**
نقله إلى العربية: **بدر الدين مصطفى**

1 ترجمة للفصل الثامن من كتاب:

Raja Halwani, Philosophy of Love, Sex, and Marriage: An Introduction (London: Routledge, 2018) pp 241- 274

مقدمة الترجمة

يسعى رجاء حلواني إلى تقديم تعريف «للتشيؤ»، ثم يشرح أهمية هذا المفهوم من الناحية الأخلاقية. يقوم بعدها بشرح وجهة نظر إيمانويل كانط عن الرغبة الجنسية، ويدافع عن الوصف الذي قدمه للرغبة الجنسية بوصفها رغبة تشيؤية. يناقش أيضًا المحاولات المختلفة التي قدمت للالتفاف حول المشكلة الكانطية، ويجادل بأن جميعها يفشل، ولو بصورة جزئية، لأنها تسيء فهم وجهة نظر كانط. أخيرًا، ينتقل إلى مناقشة المواد الإباحية والاعتراضات النسوية عليها، خاصة تلك التي ترى بأنه يحط من قدر المرأة. إنه يزعم بأنه على الرغم من أن المواد الإباحية تعمل على تشيؤ موضوعاتها، فإنها لا تفعل ذلك فقط بالنسبة للنساء، وأن الاعتراضات النسوية قد أخفقت في فهم ذلك.

ماذا يعني التشيؤ الجنسي؟

يشير التشيؤ في جوهره إلى النظر إلى الشخص الكائن بوصفه موضوعًا فقط. التشيؤ الجنسي هو اختزال الفرد في بعده الجنسي فقط، أو اعتباره موضوعًا للإشباع الجنسي مع تجاهل كل الجوانب الأخرى التي تميز وجوده. فكر في الحالات التالية التي يُزعم أنها تنطوي على نوع من التشيؤ: (1) الأنشطة الجنسية العارضة (الجنس لليلة واحدة، ممارسة الجنس مع شخص مجهول في أحد الأندية الجنسية [بما في ذلك بيوت الدعارة وغيرها من الأماكن الجنسية]، الجنس مع البغايا، والاغتصاب)؛ (2) مشاهدة المواد الإباحية؛ (3) صور عارية لبعض الأشخاص أو لممارسي الجنس في المواد الإباحية. (4) التأكد من هوية شخص ما واعتباره نوعا من "الغنيمة" له أو لها أو الصياح بصوت عالٍ حال رؤيته؛ (5) هذه امرأة (أو رجل)، بينما هي (أو هو) تسير؛ (6) التخيل الجنسي لشخص معين. كل هذه الأنواع من الحالات ينظر إليها على أنها تنطوي على نوع من التشيؤ. ولكن ما إذا كانت الحالات المذكورة أعلاه تندرج بالفعل تحت فئة التشيؤ، هي مسألة تتوقف على تعريف المفهوم. لننظر في التعريفات التالية أو التوصيفات التي قدمت للتشيؤ: "معاملة شخص ما بوصفه موضوعًا جنسيًا" (Halwani 2008, 342)؛ "شخص يتم الاعتداء عليه جنسيًا بسبب ما يمتلكه من أعضاء جنسية أو النظر إلى الوظائف الجنسية بمعزل عن جوانب الشخصية الأخرى، واختزالها في الجانب الأداتي لها" (Bartky 1990, 26). يشير تعريف حلواني إلى أن التشيؤ هو نوع من التصرف أو السلوك تجاه شخص ما فقط. إذا كان x يمتلك تصورًا ذهنيًا عن y بوصفه موضوعًا جنسيًا دون أن يظهر ذلك في تصرفه أو سلوكه تجاه y، ودون أن يستشعر هذا الأخير الأمر، فإن هذه الحالة لا تندرج تحت فئة التشيؤ. ليس الأمر كذلك بالنسبة إلى تعريف بارتكي: حيث يشير يتضمن تعريف هذا الأخير السلوك والتمثيلات الذهنية أيضًا التي تشير إلى حالة التشيؤ، مثل الشعارات الجنسية على سبيل المثال والعلامات التجارية المميزة للشركات التي تقدم الخدمات الجنسية (1990، 26). هل يتوجب علينا تعريف

التشيؤ من الناحية السلوكية فقط، أم إنه يشتمل على أكثر من ذلك؟ ليس لدي أية حجج حاسمة بخصوص أي من الخيارين، ولكن التعريف الذي يركز فقط على السلوك أو التصرف، رغم أنه أكثر وضوحًا، لا يحيط بموضوع التشيؤ من كل جوانبه. على الرغم من أن التشيؤ غالبًا ما يرتبط بالطريقة التي يتم التعامل بها مع شخص ما، إلا أنه في كثير من الأحيان، إن لم يكن جميعها، يرتبط بالموقف أو السياق الذي نوجد فيه مع شخص آخر. وبالتالي، ربما يكون التعريف الأكثر شمولًا هو الأجدر في الإحاطة بالعديد من حالات التشيؤ، والتي تشمل على سبيل المثال: شخص ينظر إلى صور لنساء عاريات في مجلة جنسية. هنا نحن أمام حالة لا تعبر عن سلوك واقعي تجاه شخص ما، ولكن تتعامل مع صورة فقط من خلال النظر، وحيث لا توجد مشاركة أو تفاعل مع شخص آخر.

دعونا إذن نعتمد التعريف التالي "للتشيؤ الجنسي": x يعمل على تشيوء y جنسيًا إذا كان فقط يعامله أو أو يعتبره كائنًا جنسيًا فقط. لاحظ أننا استخدمنا "فقط" مرتين، لأننا في أحيان كثيرة نتعامل مع شخص ما بوصفه موضوعا جنسيًا وفي الوقت ذاته شخصًا له جوانبه الأخرى خلاف ذلك[1]. بما أن هذه هي الطريقة التي نتعامل بها عادة مع الأشخاص بطريقة منتظمة. إذا حذفنا «فقط» من تالتعريف السابق للتشيؤ لن يبدو سيئًا من الناحية الأخلاقية. «فقط» هنا تشير إلى أن معاملة شخص لشخص آخر تقتصر تستند إلى هدف جنسي فقط (حتى إذا كان العلاج يشمل الاهتمام باحتياجات الشخص الآخر واهتماماته، كما سأشرح لاحقًا). إن فهمنا للتشيؤ الجنسي مهم ليس فقط في ذاته، ولكن أيضًا للتحليل الأخلاقي. وقد ناقشه الفلاسفة، في معظم الأحوال، من المنطلق الأخلاقي. بالنسبة إليهم، فإن التشيؤ الجنسي مثير للقلق لأنه ينطوي على عملية اختزالية للشخص من حالة يجب أن يكون عليه (أو عليها) إلى حالة ذات بعد واحد فقط لا يتوجب أن يوجد (أو توجد) عليها. إذا كان البشر في عمومهم يتمتعون بمكانة مرموقة بحكم امتلاكهم خصائص أكثر رقيًا من الكائنات الأخرى، مثل العقلانية، الإنسانية، الكرامة، الاستقلال الذاتي، البنية العقلية المتطورة، أو كانوا على صورة الإله كما يقال، فإن اختزال الشخص في جانب واحد فقط هو أمر خاطئ من الناحية الأخلاقية.

لكن المدى الذي تكون عليه الظاهرة الجنسية من حيث شيوعها وتحققها الفعلي يجعل الأمر معها مختلفًا من حيث درجة أهمية هذه الظاهرة في حياتنا؛ إذ إنه، بخلاف حالات الاغتصاب، من النادر أن نتعامل في حياتنا اليومية مع شركائنا الجنسيين بوصفهم مجرد كائنات على نحو واضح ومقلق: نحن لا ندرك فقط إنسانيتهم لكننا ننتبه إليها ونراعيها. هذا يعني أنه إذا كان ثمة تشيؤاً جنسيا في مثل هذه الحالات، فإننا لم نكتشف بعد طبيعته بالكامل، ناهيك عن تحديد مدى أهميته وتأثيره على حياتنا.

1 هذا التعريف يختلف عن التعريف الذي ظهر في الطبعة السابقة حيث قبلت واستخدمت تعريفا لـ"التشيؤ الجنسي" الذي ينطوي على المعاملة فقط.

ثمة ميل عام في الأدبيات الواسعة المتعلقة بالموضوع، ولا سيما تلك التي عبرت عن الموقف النسوي تجاه المواد الإباحية، إلى الزعم بأن التشيؤ هو أحد النتاجات الطبيعية للنظام الأبوي والمركزية الذكورية، وهذا يعني أن النظرة المتشيئة خاصة بالرجال، في حين تميل المرأة إلى أن تكون موضوعًا للتشيؤ. تؤكد الناشطات في مجال النظرية النسوية أنهن لا يتخذن موقفًا معاديًا من الجنس في حد ذاته- لا يتبنين موقفًا محافظا منه. إذا كانت حججي التالية تسير في المسار الصحيح، سيترتب على ذلك بعض المخاوف المتعلقة بالجنس بوصفه جنسًا، وأن التمييز الذي تراه النسويات في المواد الإباحية لا يتعلق في حقيقة الأمر ببعض الطرق السيئة التي يتم معاملة النساء وفقًا لها. إذا كان الاعتراض على المواد الإباحية له علاقة بالجنس، فإنه يميز كل من الرجال والنساء، وإن كان ذلك يتم على نحو مختلف. سأجادل هنا، من خلال وجهة النظر التي قدمها كانط، (1) أن التشيؤ جزء من طبيعة الجنس، ولكنه (2) مقبولًا في العادة من الناحية الأخلاقية، والمواد الإباحية (3) لا تتضمن أي تعديلات أو إضافات على المعنى الطبيعي للتشيؤ الموجه تحديدًا إلى النساء، كما تعتقد العديد من الكتاب النسويات. لفهم هذه القضايا بشكل أفضل، دعونا نتعمق في المشاكل الأخلاقية للتشيؤ.

ما الخطأ الأخلاقي الذي ينطوي عليه التشيؤ الجنسي؟

تتمثل المشكلة الجوهرية الأخلاقية في التشيؤ في أن البش ليسو فقط مجرد موضوعات أو أشياء، وأن معاملتهم على هذا النحو تجردهم من إنسانيتهم وتحط من قدرهم وتخفض رتبتهم إلى رتبة لا يتوجب عليهم أن يكونوا فيها. في مقالها المعنون بالتشيؤ Objectification، تعدد مارثا نوسباوم سبع طرق مختلفة يمكن أن يكون فيها الشخص متشيئًا من قبل شخص آخر: 1. الأداتية، حيث يعامل الآخر كموضوع بوصفه أداة لتحقيق هدف.2. الحرمان من الاستقلال الذاتي، حيث يعامل الآخر كموضوع يفتقرإلى الاستقلالية وتقرير المصير.3. اللافاعلية، حيث يعامل الآخر كموضوع يفتقر إلى الفاعلية، وربما أيضًا في النشاط. 4. القابلية للاستبدال، حيث يعامل الآخر كموضوع يمكن استبادله بموضوع آخر (a) من نفس النوع و/ أو (ب) من أنواع أخرى. 5. العنف، حيث يعامل الآخر كموضوع يفتقر إلى الحميمية، كشيء يمكن التعامل معه بعنف أو يمكن تحطيمه. 6. الملكية، حيث يعامل الآخر كشيء يملكه الشخص، يمكن شراؤه أو بيعه، وهلم جرًا. 7. الحرمان من الذاتية، حيث يعامل الآخر كموضوع يخلو من الخبرة والمشاعر.(نوسبوم 1999، 218) يمكن أن يقوم شخصان (أو أكثر) بممارسة الجنس مع الابتعاد عن أي من أشكال التشيؤ السابقة. كما يمكن أن يقوم شخصان (أو أكثر) بممارسة الجنس، وهما في حالة تشيؤ بأي معنى من المعاني السابقة أو بأكثر من معنى في وقت واحد. دعونا نستخدم الجنس العرضي بوصفه شكلًا جنسيًا يوضح لنا الإشكاليات المرتبطة بالتشيؤ.

في اللقاءات الجنسية العرضية المعتادة - أركز هنا على لقاء الليلة الواحدة واللقاءات الجنسية التي تتم داخل بعض نوادي الجنس بين أطراف يجهل كل منهم الآخر- لا يعامل الشركاء الجنسيون بعضهم البعض بطرق تنتهك إنسانيتهم، أو على اعتبار أنهم ملكية خاصة لبعضهم البعض، كما أنها لا تفتقر إلى الفاعلية، والاستقلالية، أو الذاتية. إنهم لا يكونون مدركين فقط للجوانب الإنسانية التي تميزهم، بل هي كذلك الشرط المسبق لرغبتهم؛ إنهم يرغبون في لقاء جنسي مع إنسان آخر كونه شخصًا يمكنه الاستجابة لرغباتهم الجنسية ولديه رغبات جنسية مماثلة خاصة به، حتى عندما يعاملون شركاءهم الجنسيين "كموضوعات للمضاجعة fuck objects"، فإنهم لا يعاملونهم كأشياء غير حية، بل ككائنات بشرية تمارس الجنس. لا يبدو الجنس العرضي إذن مستوفيًا للعديد من طرق التشيؤ السبع التي حددتها قائمة نوسباوم السابقة. أما بالنسبة إلى قيمة الاستبدال، فهي قيمة منتشرة في تفاعلاتنا الحياتية طوال الوقت، حيث نجد هذه القيمة مطبقة بصورة كاملة في عالم التسوق: إذ يحق للمتسوقين الانتقال من متجر إلى آخر، حتى يشتروا ما يحلو لهم. كل أنواع البشر، من الناس هي قابلة للاستبدال بهذه الطريقة: ميكانيكي السيارات، والسباكين، ومصممو البرامج، المضيفات والمعلمين. ولكن هناك نوعان من الأدوار، لا يمكن ممارسة عملية الاستبدال فيهما: أولاً، الآباء والأبناء والعشاق والأشقاء والأصدقاء وغيرها من العلاقات الحميمة المماثلة. قد يبدو الأمر كنوع من المزاح السمج أو انعدام اللياقة المطلق، أن أقوله لأحد الوالدين ممن فقدا طفلهما، "لماذا لا تتخذ جيك بديلًا لابنك؟ إنه يبدو شبيهًا له بدرجة كبيرة". ثانيًا وبالتأكيد، هناك أناس لدينا التزامات نحوهم وقطعنا وعودًا على أنفسنا تجاههم يتوجب علينا الوفاء بها. إذا وعدت بائع الزهور الذي يمكث في شارعي بشراء الزهور منه، فهو أمر غير قابل للاستبدال بباعة الزهور الآخرين؛ ما لم يكن هناك داعيًا اضطراريًا لذلك. ومادامت العلاقة خارج هذين النوعين، فلا شيء يستعصي على الاستبدال، بما في ذلك الجنس. المشكلة في واقع الأمر لا تتعلق بالاستبدال إذا خرجت إلى حانة من أجل اختيار شخص ما لممارسة الجنس، فليس ثمة خطأ فيما يتعلق بمعاملة كل شخص كشريك جنسي محتمل، قابل للاستبدال مع الجميع أو مع من ينتمون إلى الفئة ذاتها. أولًا، إذا لم تكن لدي أي التزامات بممارسة الجنس مع شخص معين. ثانيًا، ليس لدي أية علاقة خاصة مع أي شخص لدي التزام تجاهه بالتعامل معه على أنها غير قابل للاستبدال.

ماذا عن الأداتية؟ يبدو أن شركاء الجنس العرضي يعاملون بعضهم البعض كأدوات لتحقيق الإشباع. المشكلة الوحيدة مع هذا المنطق تتمثل في انتشاره في حياتنا بشكل طاغ. نعامل بعضنا البعض كأدوات طوال الوقت، لذلك إذا كان الجنس العرضي هو نوع من التشيؤ بسبب طابعة الأداتي، فإنني أتخذ موقفًا متشيئًا من العامل الذي أدفع له المال لشراء متطلبات البقالة. هكذا يبدو أن الفعل الأداتي ليس فقط جائزاً من الناحية الأخلاقية، ولكنه من ضروريات الحياة أيضًا. لا تكمن المشكلة في الأداتية، بل في الوسيلة التي ننتهجها في ذلك: التعامل مع الآخرين فقط كأدوات (شيء تقره نوسابوم؛ 1999، 223)، بمعنى التغافل عن احتياجات الآخرين أو عدم احترام رغباتهم وتفهم دوافعهم- على سبيل المثال، سرقة أشياء من داخل المتجر أو دفع ثمن

السلعة على نحو ما تريده أنت بدلًا من السعر الفعلي لها. هل الشركاء في الجنس العرضي يعامل كل منهم الآخر كوسيلة؟ لقد رأينا أنه عادة ما يكون الشركاء في الجنس العرضي منتبهين لرغبات بعضهم البعض، وكثيرًا ما يلتفتون إليها، بقدر ما أصغى لسعر السلعة التي أرغب في الحصول عليها. إذا كانت هذه الحالة الأخيرة هي نوع من الأداتية المفيدة، فيجب أن ينطبق ذلك على كل حالة من حالات الجنس العرضي التي يتفهم كل طرف فيها احتياجات الطرف الآخر ورغباته؛ أي إنه إذا كان ما يجعل مسألة صاحب المتجر الذي يحدد لي سعر المنتج، ويطلب مني دفعه أمرًا طبيعيًا إذا التزمت به (حققت ما طليه مني)، فيجب أيضًا أن تكون كل حالة من حالات الجنس العرضي مسموحًا بها نظرًا لأن الشركاء يحققون أهداف بعضهم البعض (الجنسية). صفة العرضية هنا التي نصف بها طبيعة الجنس لا تمثل أية مشكلة خاصة في هذا الصدد. وحتى على فرض وجود قدر من التشيؤ في الجنس العرضي، فإن العديد من اللقاءات الجنسية الأخرى ليست كذلك. ولكن إذا كان الناس في الجنس العرضي لا يتحركون بدافع التشيؤ، فأي نوع آخر من الجنس يفعلون ذلك؟ أليس الجنس العرضي هو النموذج الأمثل للتشيؤ؟ كيف يمكننا أن نختبر التشيؤ إذا كان التحليل السابق يخلص إلى أن الجنس العرض في الجانب الأكبر منه لا يخضع للتشيؤ؟ إليك طريقة واحدة معقولة لفهم الفكرة: عندما يحقق الشركاء الجنسيون رغبات بعضهم البعض، فإنهم لا يفعلون ذلك في نهاية المطاف من أجل الآخر، ولكن من أجل رغباتهم الأنانية الخاصة. هذا هو الأمر، يقدم x المتعة الجنسية لك، لأن ذلك يرضيه أو لأن x ينتظر من y أن يعامله بالمثل. قد لا يكون هذا متشابهًا مع المثال السابق الخاص بصاحب المتجر. فإنا أعطيه المال من أجل الحصول على السلعة، وهو يكسب المال من خلال بيعه السلعة لي، هذه العملية تبدو بريئة من الشبهات الأخلاقية، لكن هذه البراءة تبدو أنها بعيدة بعض الشيء عن الرغبة والنشاط الجنسي. كما سنرى في مناقشتنا حول كانط، هذا هو الاعتبار الحاسم الذي يحدد الرغبة والنشاط الجنسيين عن الأنشطة الأخرى.

ثمة حالات واضحة من التشيؤ. ويعد الاغتصاب واحدًا من تلك الحالات: حيث المغتصب يعتبر الضحية مجرد أداة، موضوع، للإشباع الجنسي. حالة أخرى من الحالات الواضحة للتشيؤ يمثلها رجل يقوم بمطاردة امرأة بالتصفير والغزل. أولًا، لأنها لا توافق على الفعل، ثانيًا لأن الرجل يعامل هذه المرأة بوصفها مجرد أداة للمتعة. وعلى العكس من الحالات المعتادة للجنس العرضي، حيث يوافق المشاركون على الفعل، فإن المرأة في هذه الحالة لا توافق على ذلك. الرجل يستخدمها فقط. يبدو أيضًا أنه لا يبالي باستقلالها الذاتي، كونها فاعلة، ذاتيتها الخاصة. إنه ينتهكها، ليس جسديًا، لكن على المستوى النفسي: يقتحم مجالها وقدرتها على المشي بحرية دون مواجهة متاعب غير مرغوب فيها. قد يعاملها أيضًا كما لو كانت مملوكة له يفعل بها ما يحلو له. ومع ذلك، فإن الأمر مثير للجدل لأن هذا الرجل لا يحتاج إلى الاعتقاد بأنه يملكها، والتي هي صفة أساسية من صفات التشيؤ. الآن اقتربنا نوعًا ما من تحديد المجال الذي يدور يه التشيؤ الجنسي، دعونا

نناقش أكثر المشكلات التي تنتج عن التفاصيل المرتبطة به. فيما يلي سأشرح وجهة نظر كانط وأدافع عنها ومن ثم ننظر في بعض المحاولات التي قدمت للتغلب على ما تثيره من مشكلات.

كانط والتشيؤ

الصيغة الكانطية للإنسانية

تدور فلسفة كانط الأخلاقية حول فكرة أن الموجودات العاقلة من البشر، هم نوع من الموجودات المتطورة، التي تمتلك خصائص خاصة تتطلب طرقًا خاصة أيضًا في التعامل معها. إن الصفة الإنسانية (التي يستخدمها كانط بمعني مختلف عن استخدامتنا لها) هي إحدى هذه الخصائص، وهي الأساس الذي قدم كانط على أساسه صيغته الشهيرة للإنسانية، إنها صفة أخلاقية تدلنا على الكيفية التي نتعامل بها مع بعضنا البعض. تنص الصيغة الإنسانية، كما رأينا، على "افعل دائمًا بحيث تعامل الإنسانية، في شخصك وفي شخص الآخرين، على أنّها غاية، وليس أبدًا على أنّها مجرد وسيلة" (1981، 4: 429). للتلخيص، فإن الفكرة هي أننا لا نتعامل مع بعضنا البعض كأدوات فقط لتحقيق أهدافنا، ولكن يجب علينا أيضًا أن نتعامل مع بعضنا البعض كأهداف في أنفسنا. يجب علينا، في معاملتنا لبعضنا البعض، أن نأخذ أهدافنا على محمل الجد: يجب علينا عدم إحباطها، وفي بعض الحالات يجب أن ننظر إليها على أنها تخصنا. في بعض الحالات، نتدخل لمساعدة شخص ما على تحقيق أهداف معينة. يتوجب علينا، في كل الأحوال، دائمًا أن نحترم أهداف الآخرين وخططهم، سواء كان هذا الأمر يتم على نحو سلبي (عدم التدخل) أو على نحو إيجابي (المساعدة). تؤكد صيغة كانط للإنسانية أنه يجب علينا معاملة الإنسانية فينا كغاية. الإنسانية أو الطبيعة العقلانية عند كانط هي خاصية للموجودات العاقلة. هي قدرتنا على وضع الغايات أو الأهداف، سواء كانت جيدة أو سيئة، والعمل عليها، بما في ذلك القدرة على العمل من أجل الغايات الأخلاقية. بالنسبة إلى كانط، فإن الإنسانية ليست شيئًا يمكننا تحقيقه ومضاعفته؛ إنها خاصية موجود بالفعل وملازمة لوجودنا، مثل المتعة، ولا يمكن إضافتها أو استبعادها من طبيعتنا. علاوة على ذلك، فهي غاية موضوعية من حيث كونها صحيحة وملزمة للجميع؛ لا يعتمد من أجلها على أهدافنا الفردية أو رغباتنا للقيام بذلك. الأهم من ذلك، أن الإنسانية بالنسبة إلى كانط هي القيمة الأساسية الأسمى. ولأنها كذلك، يتوجب علينا احترامها. السؤال هو: ما هي الحجج التي يمكن تقديمها لإثبات أهميتها؟ في كتابه المعنون بأسس ميتافيزيقا الأخلاق يقدم كانط حجته التي ستبلغ ذروتها بعد ذلك في بيانه عن النزعة الإنسانية:

"نتصور الإرادة كملكة تقرر بذاتها العمل بما يتسق مع تمثل بعض القوانين، ومثل هذه الملكة لا يمكن أن نجدها إلا في الكائنات العاقلة. ومن هنا، فإنّ ما يكون للإرادة بمثابة مبدأ موضوعي لتتخذ قرارها بذاتها

لهو الغاية، فإذا كان العقل وحده هو الذي يضع هذه الغاية، فإنّها يجب أن تصح أيضًا لجميع الكائنات العاقلة على حد سواء". (Kant 1981, 4: 429).

سأحاول فيما يلي توضيح هذه الحجة مستعينًا بالتفسير الذي قدمه ألين وود (2008، 90-93). في الادعاء بأن كل إنسان «بالضرورة» يفكر في وجوده كأنه غاية في ذاته، يبدو أن كانط يريد أن يقول أنه، في ضوء الطريقة التي نتصرف بها والأحاديث التي نتبادلها، يمكننا أن نستنتج أن الأفراد يفكرون في وجودهم كغاية في ذاتها (نحن لا نعتقد في ذلك بطريقة واعية؛ كثير من الناس لا يفكرون في أنفسهم على هذه النحو). عندما يضع الناس أهدافًا لأنفسهم، فإنهم يقومون أيضًا بتحديد الطرق التي يمكن تحقيقها بواسطتها. وعلاوة على ذلك، فإنهم يعتقدون أثناء تحديدهم لهذه الأهداف أنها جيدة (وإلا فلماذا يقومون بتحديدها؟). إذا قمت بتحديد هدف لي يتمثل في تأليف كتاب عن الجنس والحب، وحددت الوسائل اللازمة والكافية لتحقيق هذا الهدف، سيكون الهدف جيدًا بالنسبة إلي، حتى لو لم أشعر طوال الوقت بالإعجاب إزاء الخطوات اللازمة لتحقيق ذلك (سمة مشتركة للفكر والعمل البشري). ومع ذلك، لكي نكون قادرين على وضع أهداف أو غايات لأنفسنا، نحتاج إلى أن يكون لدينا اعتقاد في قدرتنا على وضعها؛ القدرة العقلانية تحديدًا. وعلاوة على ذلك، ولأنني أمتلك هذه القدرة، يجب أن أحترمها (أو أقدرها). إنها القدرة على تحديد الأهداف والاتجاهات لحياتي والوسائل التي تساعدني على تحقيقها، وهي قدرة تخصني أنا. لاحظ أن القدرة على تحديد الغايات، كونها موضوعًا للاحترام لا تختلف من فرد لآخر؛ بمعنى أنها لا علاقة لتلك القدرة، على سبيل المثال، بما إذا كانت هذه الغايات عقلانية، غير عقلانية، أخلاقية أو غير أخلاقية.

ولأن كل كيان عقلاني، ولست فقط أنا، يمثل وجوده غاية في ذاته (موضوعًا للاحترام)، فإنه من الواجب أن أعامل الإنسانية في نفسي لا فقط كوسيلة، ولكن أيضا كهدف، وهذا المبدأ يسري علي مثلما يسري على كل مخلوق عقلاني آخر. علاوة على ذلك، لأن كل كائن عقلاني يمتلك تلك القدرة، يجب أن أتعامل مع الاحترام الذي هو موجود بداخلي بوصفه أمرًا كائنًا في كل شخص آخر على نحو مماثل. من هنا، نصل إلى الصيغة الإنسانية. الإنسانية هي موضوع الاحترام في كل موجود عقلاني، حتى لو تصرف البعض بحماقة، أو بطريقة لا أخلاقية، أو تسببوا في إهانة أنفسهم. الفكرة أن الإنسانية توجد في كل مخلوق عقلاني، بغض النظر عن حالته الفعلية والسلوكية، وهي التي تجعل الموجودات العقلانية مستقلة بذاتها ولديها القدرة على التصرف بشكل مستقل، حتى لو لم تكن تفعل ذلك دائمًا. القدرة على تحديد الغايات هي قدرة عظيمة بشكل عام، صفة تميزنا، وتدعونا لاحترام ذواتنا. يمكننا بعد ذلك المضي قدما في افتراض أنها تنجح في إثبات وجود شكل من أشكال الكرامة الميتافيزيقية- كرامة يمتلكها الجميع بغض النظر عن الكيفية التي يتصرف الناس وفقًا لها. في الواقع، حتى لو كانت لدينا شكوك حول الحجة، فإننا نمتلك إيمانًا راسخًا بوجود هذه الكرامة، اعتقاداً يفصح عن نفسه في رفضنا معاملة الناس بطرق معينة بغض النظر عما

فعلوه. ربما هذا اعتقاد يمنعنا كذلك من رفض معاقبة المجرمين ببعض الطرق (على سبيل المثال، معاقبة المغتصبين بتعريضهم للاغتصاب). ومع ذلك، علينا أن نكون حذرين لأن القيم الاجتماعية والثقافية في كثير من الأحيان تتسبب في سوء فهم كبير في معنى الكرامة ذاتها. وبالتالي، قد نتفق على أن البشر يجب أن يتصرفوا بكرامة ويتوجب التعامل معهم بطرق كريمة ولكن قد لا أوافق علىبعض السلوكيات أو المعاملات التي يعتبرها المجتمع كريمة وهي ليست كذلك بالفعل، لأن المجتمع يمكن أن يخطئ. يشعر الناس أحيانا بالإهانة من المجتمع في حين أنهم يقومون بأمور لا ينبغي أن يشعروا بالإهانة بسببها، كما هو الحال مثلًا في الممارسات المثلية داخل بعض المجتمعات. في بعض الأحيان قد يكون من الصواب الشعور بالخجل أو الاستياء، لكن في أحيان أخرى قد تكون هذه المشاعر، التي يولدها المجتمع في بعض أفراده، غير مبررة، والأمر يتوقف على ما إذا كان المجتمع محقًا في إدانة الأشياء التي يدينها أم أن تلك الإدانة بها نوع من الطغيان. ينبغي أن يشعر السارق بالخجل، لكن يجب ألا يشعر المرء بالعار بسبب حب شخص ما من له من سياق مختلف عنه. الفكرة هي أنه عندما نحكم على معاملة شخص ما بإنها مهينة ومذلة، نحن بحاجة إلى التأكد من أن اتهامنا يقوم على أساس صحيح ووفقًا للمعتقدات والقيم الأخلاقية.

لماذا يعد الجنس موضعًا للاتهام في الأخلاق الكانطية؟

دعونا نبدأ بنقطتين قبل أن نناقش الموضوع الجنسي. أولاً، إدانة كانط للأداتية تتضح في تعريفه السابق للإنسانية، وهي طريقة أخرى للتحدث عن موضوع هذا الفصل؛ التشيؤ. لأننا عندما نتعامل مع الإنسانية في شخص ما بوصفها أداة أو وسيلة، نتعامل مع الشخص بوصفه موضوع، كشيء نرغب في تحقيق أهدافنا من خلاله. علاوة على ذلك نحن نتحدث عادة عن التشيؤ بوصفه خاصة موقفًا يتخذه شخص تجاه شخص آخر. لكن وفقًا لكانط، يغدو الطرفين، في العلاقة الجنسية، على قدم المساواة من حيث أن كلًا منهما يشيء الآخر(Soble 2013b, 323–324). وهكذا، فإن مناقشة كانط حول تضيف لمسة جديدة للموضوع، تتمثل في التشيؤ الذاتي.

يضع كانط الجنس في موضع المتهم، نتيجة اعتقاده بأن التشيؤ صفة جوهرية من صفات الرغبة الجنسية ويعبر عن طبيعتها. هذا لأنه عندما نرغب في شخص ما على نحو جنسي؛ فنحن نرغب في جسده وأجزاء من جسده، مما يجعل من الصعب بمكان، إن لم يكن من المستحيل، أن أتعامل مع الإنسانية بداخله. يقول كانط "لأن الجنس ليس ميلًا من إنسان إلى إنسان آخر، ولكنه ميلًا لجنس آخر، فإنه يعمل على تدهور الطبيعة البشرية.... الرغبة التي تكون لدى الرجل تجاه المرأة، ليست موجهة لها بوصفها إنسانًا، بل لأنها امرأة. وكونها إنسانًا لا يهم الرجل في شيء؛ فقط طبيعتها الجنسية هي التي تكون موضوعًا لرغبته. الطبيعة الإنسانية تكون

بالتالي تابعة.... وهكذا يتم التضحية بالطبيعة الإنسانية من أجل ممارسة الجنس... لهذا السبب تعمل الصفة الجنسية التي يكون عليها الإنسان على تعريضه لخطر المساواة مع الوحوش.“ (Kant 1963, 164).

بالنسبة إلى كانط، ”يمكن للإنسان، بالطبع، استخدام إنسان آخر كوسيلة لتحقيق أهدافه؛ يمكنه استخدام يديه، قدميه، وحتى كل قدراته. يمكنه استخدام ذلك كله لتحقيق غاياته الخاصة مادام الآخر يوافق على ذلك. لكن لا توجد طريقة يستطيع بها الإنسان أن يكون هدفًا سهلًا للآخر إلا من خلال الدافع الجنسي“ (1963، 163). من المسموح به أخلاقيا أن يستخدم كل منا الآخر لكل أنواع الأغراض مادامت هذه الأهداف هي من النوع الجائز أخلاقيًا، ومادام هذا الاستخدام يحظى بقبول الطرفين. ربما أتعاقد مع سباك ليقوم ببعض الإصلاحات في شقتي، أنني استخدم يديه وبعض من قدراه لإصلاح السباكة. مادامت أحظى بموافقة السباك على القيام بعمله، ومادامت أعمال السباكة جائزة من الناحية الأخلاقية، يكون الفعل جائزًا أخلاقيًا.

لكن التفاعلات الجنسية مختلفة. فحتى إذا وافق الطرفان على اللقاء الجنسي، فإن الموافقة هنا ليست كافية، لأن النشاط ذاته خاطئ من الناحية الأخلاقية، لأن الرغبة الجنسية تصنع شيئًا آخر. يقول كانط: «ينطوي الحب الإنساني على نوع من البراءة، الحنان، وتعزيز سعادة الآخر، والشعور بالفرح حال تحقيق ذلك. لكن من الواضح أنه عندما يحب شخص شخصا آخر من منطلق الرغبة الجنسية البحتة، فإننا لا نجد أي أثر فيه لتلك الصفات السابقة التي تميز الحب الإنساني. قد تتسبب محاولات إشباع الرغبة في إفساد حياة المحبوب، قد تلقي به في غياهب البؤس. الحب الجنسي يجعل من الشخص المحبوب موضوعا للاشتهاء. وبمجرد إشباع الرغبة يتم التخلص من الموضوع مثلما يتخلص أحدهم من الليمونة بعد عصرها... الحب الجنسي هو تدهور اللطبيعة الإنسانية؛ بمجرد أن يصبح الشخص موضوعًا لاشتهاء الآخر، تتوقف كل الدوافع الأخلاقية عن العمل».

باختصار، لا يمكننا التعامل مع شخص ما من جهة كرامته إذا تعاملنا معه بوصفه «موضوعًا للاشتهاء.». يتوجب علينا هنا شرح حجة كانط وتعقب آثارها. عندها فقط يمكننا معرفة ما إذا كانت وجهات نظره مقنعة أم لا. هناك فكرتان حاسمتان في المقاطع المذكورة أعلاه. تتمثل الأولى في أن الرغبة الجنسية قوية للغاية، لدرجة أنها قد تدفع الرجل إلى أن إشباعها حتى لو ترتب على ذلك القضاء على المحبوب والإيقاع به في غياهب البؤس. ثانياً، وفي رأيي، السبب الرئيس الذي يجعل كانط يشير إلى الرغبة الجنسية كنموذج للعلاقة التشيؤية يتمثل على وجه التحديد في أنها تتأسس فقط على الشهوة الإنسانية. من هنا فإن التشيؤ هو جزء من طبيعة الرغبة الجنسية، لأننا عندما نرغب في الآخرين على نحو جنسي نعتبرهم أشياء. هكذا يتم تثبيط «كافة دوافع العلاقة الأخلاقية». هذه هي النقطة التي ترتكز عليها حجة كانط. لماذا تعمل الرغبة الجنسية بطبيعتها على التشيؤ؟. ماذا يعني كانط به؟ لنفترض أن مارك يجلس في مقهى، ينظر إلى

المارة. تمر من أمامه أمرأة فاتنة، فينظر لها نظرة متفحصة: إنه يتأمل ثدييها، رجلها، وفخذيها. لا يبدي مارك اهتمامًا بأي جانب آخر من جوانب المرأة. إنه يهتم بها فقط كموضوع جنسي. لنفترض الآن أن امرأة ما - ولتكن ماندي - تجلس في مقهى ما، يلفت نظرها هذا الشاب الجالس جوارها- وليكن مارك، إنها تجده شديد الجاذبية- تتفحص تفاصيل جسده، العضلة ذات الرأسين، وعينيه بنية اللون. بعد قليل تتبادل ماندي مع مارك أطراف الحديث وسرعان ما دعته إلى غرفتها في الفندق للحصول على القليل من «المرح». يذهبا سويًا لممارسة الجنس- إنهما يشبعان رغبتهما الجنسية. بمجرد انتهائهما، يترك كلًا منهما الآخر، يتخلص كلا منهما من الآخر كما لو كان الأمر أشبه بالتخلص من ليمونة بعد عصرها. هل هذا ما كان يقصده كانط بالفعل؟ هل الأمر بهذه البساطة؟ يصعب أن نتخيل أن هذا ما كان يقصده كانط فقط. لنفترض أنني استأجرت سباكًا. فلن يهمني أي جانب آخر له باستثناء قدراته في السباكة. وهو لن يهتم بأي شيء آخر أو أي جانب من الجوانب التي لدي باستثناء قدرتي على الدفع. بمجرد الانتهاء من إصلاح المغطس يودع كلا منا الآخر. إنني أعتبره سباكًا، وهو ينظر إلي كعميل. عندما ننتهي، يتخلص كلا منا من الآخر كما لو كان الأمر أشبه بالتخلص من ليمونة بعد عصرها. من المفترض أن يكون كانط على علم بمواقف مثل هذه. فلماذا يتهم الرغبة الجنسية على وجه التحديد؟.

تكمن الإجابة في ملاحظة كانط بأن الرغبة الجنسية تستهدف أجساد الأشخاص، ليس «عملهم وخدماتهم». ما يعنيه، فيما اعتقد، يتمثل في: عندما أستأجر سباكًا، أكزن مهتمًا بقدرة معينة لديه، القدرة على إصلاح أي شيء ينتمي لعالم السباكة. عندما أطلب مدرسًا للرياضيات، أكون مهتمًا بقدراته الرياضية. عندما أستأجر مدلكًا، أكون مهتم بقدراته على التدليك. في كل تفاعل يحدث تقريبًا مع شخص آخر، نحن نهتم ببعض القدرات، أو المواهب، أو الخدمات التي يمكن أن يؤديها، وهذا الأمر مرتبط بالتفكير العملي أو النظري (أو كليهما). في هذه الحالات، ما أريده ليس جسد الأشخاص أو أجزاء منها، ولكن قدراتهم أو مواهبهم أو خدماتهم. أما في حالة الرغبة الجنسية، فأنا أرغب فقط في الجسد أو في أجزاء محددة منه. أريد أن أستمتع بالشخص نفسه، وليس صوته الجميل، مهارته، أو قدراته في التدليك. إن الرغبة الجنسية تجعل الناس يتشيأون عن طريق عكس علاقتنا العادية بأجسادهم. أجسامهم تصبح في نهاية المطاف بؤرة اهتمامنا، بدلًا من أن تكون في خدمة قدرات أخرى يمتلكونها. هذا ما كان يقصده كانط في تأكيده أن التشيؤ جزء لا يتجزأ من الرغبة الجنسية.

وباختصار، فإن كلًا من الرغبة الجنسية والنشاط الجنسي عند كانط يمثلان مشكلة على وجه التحديد لأنهما سببًا في أن نعامل الناس كأشياء، وهو موقف لا يتوافق مع معاملة الناس كأشخاص عقلانيين يتمتعون بالكرامة. نحن نقترب منهم كأجسام ترضي شهوتنا، مما يجعل من الصعوبة بمكان التعامل معهم كأهداف وغايات. حتى إذا كان الشريكان الجنسيان يأخذان بعين الاعتبار أهدافهما الجنسية واحتياجاتهم، إلا أنهما

يقومان بذلك بشكل فعال فقط لإرضاء رغباتهما الجنسية الخاصة. وبالتالي، من الصعب أن نرى كيف يمكن لعلاقة جنسية بين شخصين أن تفي بمتطلبات الصيغة الإنسانية. خلاصة القول أن كانط ينظر إلى كل من الرغبة الجنسية والنشاط الجنسي بوصفهما غير متوافقين مع ذواتنا ككائنات لديها الكرامة والعقلانية.

تقييم وجهة نظر كانط للجنس

يستهدف هذا التقييم أمرين: وجهة نظركانط في الطبيعة الجنسية، والآثار الأخلاقية التي يستخلصها كانط من نظرته إلى الطبيعة الجنسية. كان كانط محقًا في جانب مهم متعلق بالرغبة الجنسية: إنها تستهدف الجسم الإنساني أو أجزاء جسدية منه دون أن تستهدف الإنسان ذاته. كما يقول سوبل، «جسم الشخص الآخر، بطريقة منفصلة عن الشخص ذاته» (2013b, 302). الظواهر المرتبطة بالغربة الجنسية- الطريقة التي نشعر بها عندما نخضع لها- تبرهن على هذه النقطة مرارًا وتكرارًا. بقدر ما يندفع الكثيرون في اتهام كانط بالمثالية في موقفه، أو كونه مناهضًا للجنس، أو عذري التوجه، أو أن موقفه كان في قبضة فلسفته الأخلاقية التي جعلته يخسر حواسه، يجب أن نعترف أنه على حق في هذه النقطة. 6 تحت تأثير الرغبة الجنسية، تغدو أجساد الآخرين، سواء أكانت حقيقية أم متخيلة، هي هدفنا. حتى في الجنس بين العشاق لا بد في نهاية المطاف أن يعبر عنه من خلال النشاط الجنسي: ليس شرطًا أن يتم الفعل الجنسي كاملًا بين العشاق، لكنه لا يعدم أن يجد تعبيرًا جسديًا عنه، حتى في أكثر المجتمعات المحافظة. من هذا المنطلق يغدو كانط على حق. ومع الوضع في الاعتبار الطريقة التي تعمل بها الرغبة الجنسية فإن الاستنتاج الذي يخلص إليه كانط لن يكون هناك مفر منه: إنها تجعلنا نتعامل مع شريكنا الجنسي كموضوع للرغبة. إضافة إلى ذلك، فإن الرغبة الجنسية ليست سيئة فقط لأنها تستهدف أجساد الناس، لا الجانب الإنساني منهم. إنها أيضا رغبة جامحة قد تتسبب في إسكات كافة الاعتبارات الأخلاقية من أجل إشباعها: تخيل أن الرغبة الجنسية صامتة ولا تدفعك إلى الفعل أو محاولة الإشباع، سيبدو الأمر كأنه لا مشكلة فيه. لكن، للأسف، الأمر ليس كذلك. إنها الرغبة التي يكون صوتها صاخبًا للغاية، وهي تمارس تأثيرها بنوع من الإلحاح المتواصل الذي لا يهدأ، موقتًا، إلا بالحصول على موضوع إشباعها. وفي سبيل هذا الإشباع قد يقوم الإنسان بأفعال لا أخلاقية أو متهورة تفتقد الحكمة. لكن بالطبع يتوجب علينا ملاحظة، أنه في تفاعلنا الجنسي مع الآخرين، لا تؤدي الرغبة الجنسية إلى إسكات كافة الاعتبارات الأخلاقية. إذ لا تزال أطراف اللقاءات الجنسية في كثير من الحالات تراقب حدود كيفية تعاملهما مع بعضهما البعض: إنهما لا ينتهكان حدودهما أو يعاملان بعضهما كأشياء لأننا نضع في اعتبارنا في الغالب أن ليس بمقدورنا أن نعامل الناس بأي طريقة نريدها، من أجل إشباع رغباتنا. بدلًا من ذلك، تعمل الرغبة الجنسية عادة تحت إطار من الخطوط الأخلاقية الحمراء، إذا جاز التعبير: أنها تعمل جنبًا إلى جنب مع توخي الحذر من سوء معاملة الآخرين. لكن ربما يكون الأمر أبعد من ذلك بالنسبة إلى كانط.

فالغربة الجنسية تستخدم الآخر بالفعل بطريقة أداتية وهي طريقة لا أخلاقية في جوهرها وتكشف عن أنانية مفرطة لصاحبها، على نحو ما تم الإشارة إليه أيضًا في اقائمة الأنواع السبعة للتشيؤ.

فشل محاولات حل مشكلة كانط مع الجنس

كانت هناك بعض الطرق التي تحاول التغلب على المشكلة السابقة التي أثارها كانط بخصوص الرغبة الجنسية. وتدور معظم هذه الطرق في إنكار لا أخلاقية الرغبة الجنسية في تعاملها مع موضوعها. يعتمد آلان سوبل هذا النهج في كتابه المواد الإباحية، الجنس، والنسوية Pornography, Sex, and Feminism. يرى سوبل أن الاعتراض على المواد الإباحية كونها تعمل على تشيؤ المرأة، مفتعل. يقول: «الاعتراض على أن المواد الإباحية تعمل على تشيئة المرأة هو اعتراض يستند على افتراض مسبقا أن المرأة، كبشر أو أشخاص، تتجاوز أكثر بكثير كونها مجرد موضوعات للمتعة. من أين هذا التفاؤل الوهمي؟ (2002، 51-52). الوهم الذي يشير إليه يتمثل في «الاعتقاد بأن البشر يتجاوزا كونهم أجسامًا، أكثر من الحيوانات. يترتب على هذا الاعتقاد اعتقاد آخر بأن الإنسان كائن مميز على نحو رمزي، يمتلك كرامة أساسية، قيمة متجاوزة، ما يجعل من فكرة استخدامه نوعًا من التجريد لهما، ومن ثم تجريد إنسانيته من صفاتها المميزة. وهذا ما تقوم به المواد الإباحية لأنها تعمل على تشييء المرأة في بعدها الجنسي فقط متجاهلة صفاتها المميزة ككائن بشري. لكن الحقيقة أن ما تقوم به المواد الإباحية من تصوير للجانب الحيواني في الإنسان لا يعد أمرًا خاطئًا. انها تؤدي إلى التشيؤ بالتأكيد، ولكن هذا التشيؤ لا ينطوي على أية مشكلة أخلاقية (2002، 67). هذه النقطة يمكن تمديدها إلى اللقاءات الجنسية بشكل عام: إذا كان الهدف فقط من العلاقة بين الطرفين يتمحور أساسًا حول الجنس والجسد، فليس ثمة مشكلة هنا. المشكلة تنشأ من وهم الاعتقاد بأنهم أكثر تميزًا من الحيوانات في هذا الجانب. لماذا يعتقد سوبل في أننا لا نمتلك مثل هذه الخاصية الميتافيزيقية التي حدثنا عنها كانط؟ أحد الأسباب هو أن «معظم الناس في العالم الحقيقي قذرون، يعانون من البدانة، قبيحون، أغبياء، جهلة، أنانيون، لا فائدة منهم، لا يمكن الاعتماد عليهم» (2002، 53-54). على الرغم من أن سوبل يبدو على حق في هذا، إلا أنه لا كانط ولا الكانطيون من بعده زعموا أن معظم الناس يتمتعون بصفات عكس التي ذكرها سوبل. في الواقع، كان كانط نفسه مدركًا تمامًا لميل البشر إلى إبداء الاهتمام بالآخرين نتيجة تحكم رغباتهم وليس نتاجًا لدوافع أخلاقية (1996 ب، 6: 26–32). الاحترام يكون موجهًا إلى الخصائص التي يمتلكها الناس إنطلاقًا من كونهم أشخاصًا، حتى لو كانوا في الحياة الفعلية يقومون بأفعال غير أخلاقية. لذا فإن انتقاد سوبل في الاقتباس أعلاه ليس موجهًا إلى رأي كانط في حقيقة الأمر.

يقدم سوبل سبباً آخر يعارض من خلاله الاعتقاد القائل بالكرامة الميتافيزيقة التي يتمتع بها الناس بحكم كونهم بشرًا، حيث من الصعب أن نرى كيف يمكننا التأكد من وجود هذه الخاصية من خلال ملاحظتنا للناس

فقط، لأن معظم الناس لا يفعلونولا يتصرفون على نحو يؤكد وجود مثل هذه الخاصية. علاوة على ذلك، دراسة الناس والحيوانات تشير إلى أنه لا يوجد فاصل حاد بينهما، لذلك نحن لا نمتلك سوى الحد الأدنى من الأسباب التي تجعلنا نعتقد أن البشر يملكون خاصية ترفعهم لدرجة أعلى من الحيوانات. من ناحية أخرى، وإذا لم نتمكن من اكتشاف هذه الخاصية عن طريق التجريب أو الملاحظة. قد نقدم حجج فلسفية لوجودها، لكن بدون دعم تجريبي، لن يكون الاعتقاد بوجودها أكثر من أي اعتقاد فلسفي مضاد. لذلك، قد نكون ممتلكين بالفعل لتلك الخاصية وقد لا نكون، ليس ثمة سبب لترجيح اعتقاد على اعتقاد آخر. ومع ذلك، فإن حجة كانط كما قدمتها، اعتمادًا على شرح وود لها، هي حجة قوية تدعم وجود مثل هذه الخاصية. علاوة على ذلك، وكما أشرت، يبدو أننا نؤمن بوجودها بغض النظر عن حجة كانط. نحن نؤمن بأننا نمتلك الكرامة، والكثير من تفاعلاتنا الاجتماعية والسياسية والقانونية، مؤسسة على هذا الاعتقاد، بحيث لن يصبح لعالمنا أي معنى إلا في ضوء ذلك. وهذا الأمر ليس بعيد المنال عن تصوراتنا أو اعتقاداتنا. قد لا نراه حالما يتصرف البشر بشكل طبيعي في يوم من الأيام، عندما يظهرون الجوانب القبيحة من شخصياتهم، لكننا نراه في كل مرة يتم إهانة الإنسان أو تعذيبه أو قهره وإذلاله، وأود أن أغامر بالقول إنه حتى بالنسبة إلى العديد من الحيوانات أيضًا. وبالتالي، يبدو من غير المعقول أن ننكر على البشر كرامتهم. علاوة على ذلك، فإن الرغبة الجنسية تجعلنا نتجاوزها، فينا وفي أولئك الذين نرغبهم، لمتابعة المتعة الجنسية. ومع ذلك، قد يكون سوبل محقًا في أن االتشيؤ الذي توفره المواد الإباحية ليس انتقائيًا كما تعتقد النسويات، بمعنى أنه يستهدف النساء فقط. وقد يكون محقًا في أنه ليس مخيفًا من الناحية الأخلاقية كما تؤكد النسويات. (سأجادل في هذه النقاط طوال الجزء المتبقي من الفصل).

المحاولة الثانية لمعالجة مشكلة التشيؤ هي المحاولة التي قدمتها نوسباوم. تجادل نوسباوم أنه، «فيما يتعلق بموضوع التشيؤ، يغدو السياق كل شيء» (1999، 227) وأنه في بعض أنواع العلاقات، فإن التشيؤ مسموح به أخلاقيًا. في أي نوع من العلاقات؟ في الكثير من العلاقات التي يكون فيها «الاحترام المتبادل والمساواة الاجتماعية» بين الطرفين. عندما يحدث التشيؤ في اللقاءات الجنسية بين الزوجين، يجب أن يحدث على نحو متناظر ومتبادل (1999، 230، 238). حتى إذا كان الطرفان يختلفان عن بعضهما جنسيًا، ولكنهما يفعلان ذلك في سياق علاقة تبادلية محترمة، فإن ذلك الأمر يغدو رائعًا. وهكذا، يبدو أن نوسباوم تقدم ثلاثة شروط ضرورية لكي يكون التشيؤ من الأمور الجائزة أخلاقياً غير المستهجنة. إذا كان ثمة تشيؤ، ثانياً، فيجب أن يحدث على نحو متناظر ومتبادل بين الطرفين. ثانياً، يجب أن يحدث في إطار علاقة من الاحترام المتبادل. ثالثًا، يجب أن يكون أطراف العلاقة متساوون اجتماعيًا. لاحظ أن وجهة نظر نوسبازوم تعني ضمناً أن الجنس العرضي، بما في ذلك ممارسة الجنس مع البغايا، يشتمل على تشيؤ من النوع غير المقبول أخلاقيًا. تنص نوسبازوم صراحة على هذه النقطة: «في غياب أي تاريخ سردي مع الشخص، كيف يمكن للرغبة أن تستدعي شيئًا آخر سوى التشيؤ، وكيف يمكن للمرء أن يفعل على نحو أكثر من استخدام

جسد الآخر كأداة لإشباع رغباته الخاصة؟» (1999، 237). وبالتالي، فإن وجود علاقة محترمة متبادلة أمر ضروري لكي يمكن تفهم مسألة التشيؤ وقبولها. ولكن ما لم تعالجه نوسباوم في طرحها السابق هو طبيعة الرغبة الجنسية والنشاط الجنسي في اللقاءات العرضية، حيث إن حديثها عنه غير مقنع على الإطلاق، ولا يظهر لنا بشكل واضح ما الإشكاليات المتعلقة به. وبالتالي، ليس من الواضح ما الذي يضيفه سياق علاقة الاحترام المتبادلة لجعل التشيؤ أمرًا جائزًا أو مقبولًا. لماذا يعد التاريخ السردي ضروري لممارسة الجنس؟ ولماذا يضفي عليه نوع من القبول ويميزه عن اللقاءات اللقاءات الأخرى؟

المشكلة الرئيسة في هذه المحاولة أن السياق لا يقدم تبريرًا مقنعًا لقبول التشيؤ، لأنه إذا كان التشيؤ خاطئًا، فهو خاطئ أيضًا حتى لو كان جزءًا من علاقة جيدة أخلاقيًا. وبالتالي، إذا كان التشيؤ الجنسي خاطئًا، فسيظل خطأ في مثل هذه العلاقة. لذا، فإن وجهة نظر نوسبازوم خاطئة، والسبب الرئيس في ذلك يتمثل في أنها لا تتعرض لطبيعة الرغبة الجنسية ذاتها، وتترك الأمر كله للسياق.

المحاولة الثالثة تتمثل في وجهة نظر وود الذي تفتح مناقشته إمكانية لدمج الرغبة الجنسية مع «عناصر أخرى من المشاعر الإنسانية» لجعلها أكثر أخلاقية، كأن يكون الحب مثلًا ملازمًا للرغبة. لكن ما يجب إظهاره ليس مجرد الادعاء بأنه من الممكن أن يعمل الحب على تقليص صفة التشيؤ من الرغبة الجنسية، لأن اللقاء الجنسي، حتى مع وجود الحب، قد يأتي متشيئًا على نحو كامل في وقت من الأوقات، وقد يأتي مختلطًا بالحب في أوقات أخرى. والأمر يتوقف بالكامل على الكيفية التي يشعر بها العشاق في كل لحظة من لحظات اللقاء. إن اقتراح وود السابق بدمج الحب مع الرغبة لتقليص الشعور بالتشيؤ أشبه بحقن نمر غاضب بمهدئ للأعصاب للسيطرة على جموحه، ولكن فقط لفترة من الوقت.

وهكذا، إذا كانط على حق، وظني أنه كذلك (لم أواجه حجة مقنعة مضادة)، لا يوجد مفر من الحقيقة القائلة بأن الرغبة الجنسية تعمل على تشيؤ الموضوع وتختزل الشخص في كونه مجرد شيئًا. التشيؤ الجنسي أمر لا مفر منه: عندما تتحرك رغبتنا الجنسية لممارسة الجنس مع شخص ما فليس ثمة مفر من السقوط في التشيؤ. هذا لا يعني أن النشاط الجنسي كله يكون كذلك، يمكننا استثناء بعض الحالات: الجنس الاعتيادي الممل الذي لا تحركه الرغبة الجنسية، والعاهرة التي يقع على عاتقها إرضاء العميل فقط (على الرغم من أنها تسمح له أن يعاملها كموضوع). أي نشاط جنسي لا ينبع من الرغبة الجنسية قد لا يكون نوعًا من التشيؤ.

التعايش مع التشيؤ الجنسي

في مكان آخر جادلت بأن كانط كان على صواب في اعتراضه الأخلاقي على التشيؤ، لكنه كان مخطئًا في نتيجته النهائية. التشيؤ أمر خاطئ بالفعل، لكنه خطأ يمكن التغلب عليه أو مجابهته بعوامل أخرى تقلل من خطورته (حلواني 2013). ما جادلت فيه (والذي لا أزال على قناعة به) يتمثل في أن التشيؤ لا يشكل خطورة كبيرة من الناحية الأخلاقية بسبب ثلاثة أسباب عامة. أولاً، هناك العديد من الأفعال الجنسية التي تنطوي على نوع من التشيؤ، وتتم بالتراضي بين الطرفين، وغير مؤذية، ويهتم كل طرف فيها باحتياجات الطرف الآخر. عندما نعقد مقارنة سريعة بن هذا الخطأ وغيره من الأخطاء الأخلاقية مثل الكذب والظلم، التي تتضمن إلحاق الضرر الجسيم بالضحية واستخدامها كوسيلة بحتة، يبدو التشيؤ بريئًا للغاية، إن لم يكن بالغ الرقة. الحقيقة أن وجهة نظر كانط بها نوع من التبسيط للمسألة، أو لنقل أنها تفترض أن الأنانية مكون رئيس من مكونات الرغبة الجنسية، وأنها بذلك تختلف عن المشاعر البشرية الأخرى. كما تفترض وجهة نظر كانط أيضًا أن ممارسة الجنس تتم بـ«طريقة» مهينة دائمًا، في حين أنها من لممكن أن تكون منتبهة وحساسة تمامًا لاحتياجات الآخر، كما أوضحت ذلك.

ثانيا، يحتوي النشاط الجنسي على أشياء جيدة يمكن أن تقهر أو تعمل على تقليص مشاعر التشيؤ. من جهة يعتبر الجنس كم الأمور الممتعة للغاية ولمثيرة إلى حد كبير. في الواقع، «بالنسبة للعديد من الناس الذين لا يستطيعون تجربة المتع العليا (على سبيل المثال، قراءة الشعر العربي الكلاسيكي، تأمل لوحات بلاثكث، أو الاستغراق في عوالم فتجنشتين)، المتعة الجنسية هي واحدة من المتع القليلة التي تتضمنها حياتهم». من جهة أخرى، النشاط الجنسي هو نوع من الترفيه، «في كثير من الأحيان نحتاج أن تكون حياتنا متوفرة على قدر من الترفيه، مثل حل الأحجية والكلمات المتقاطعة، وتلك الأمور التي تتطلب تركيزًا كبيرًا منا، لكنها تساعدنا في التغلب على كدح الحياة اليومية. الجنس واحد من تلك الطرق الحيوية المهمة لتحقيق ذلك». أخيرًا، ثمة قطاع من الناس لا يرغبون في الحب، الالتزامات الجنسية، أو العلاقات الأحادية، البعض الآخر يفضل العلاقات المتعددة وأشكال أخرى من الممارسة، ونحن لا يمكننا أن نضع قيودا على تلك الممارسات أو التفضيلات، لا يمكننا الادعاء بأن ممارسة دون أخرى تعمل على مضاعفة الشعور بالتشيؤ في حين أن بعض الممارسات تعمل على تقليص هذا الشعور. ثالثًا، وفقًا لبعض وجهات النظر الأخلاقية، فإن «قيادة حياة إنسانية غنية أمر يبدو مهمًا». وإذا كان النشاط الجنسي، بشكل معتدل، وبكافة الطرق المسموح بها أخلاقيًا، جزء من هذه الحياة، فإننا لا نستطيع إدانته حتى لو كان متعارضًا مع إنسانيتنا بالمعنى الكانطي (Halwani 2013, 456). لكل هذه الأسباب، فإن التشيؤ الجنسي هو من قبيل الخطأ الذي يمكن تحمله. الأمر يشبه أن نقارن بين حالتين من السكر، الأولى أن تستغرق في حالة كاملة من السكر، والثانية أن تسكر قليلًا أو بدرجة لا تجعل عقلك يغيب (بصرف النظر عن أن السكر أيًا كان درجته قد لا يكون أمرا ممتعًا).

لا شيء من المذكور أعلاه يفصح عن أن التقييم الأخلاقي لا يمكن أن يكون أن نأخذه على محمل الجد. في الواقع، الاغتصاب، من بين أمور أخرى، هو شكل خطير من التشيؤ الجنسي- فكر فقط في الكيفية التي يناسب بها مع كافة الأشكال السبعة التي حددتها قائمة نوسباوم. أيضًا هناك تلك الحالات التي لا يكون فيها الشركاء مهتمين باحتياجات شركائهم الجنسية. درجة خطورة التشيؤ الجنسي تعتمد على الموقف ذاته. في بعض الحالات، من الممكن أن يكون أخلاقيًا، في البعض الآخر لا يكون كذلك. في المناقشة التالية للمواد الإباحية، أعتبر أنه من المسلم به أن المعنى الذي قدمه كانط للتشيؤ الجنسي، يعمل في المواد الإباحية: الممثلون أو المشاركون، بقدر ما يرغبون جنسيًا في بعضهما البعض، يتشيأون جنسيًا، والمشاهد، في رغبته، يشيأهم جنسيًا أيضًا. المناقشة سوف تركز على ما إذا كانت المواد الإباحية تعمل على تشيؤ المرأة بشكل إضافي أم لا.

المواد الإباحية وانحطاط الوضع الإنساني[2]

لنفترض أن ثمة لقاء جنسيا يجري بين ممثلين أمام عدسة الكاميرا، والهدف الحصول على فيلم إباحي. فيلم تشرف على إنتاجه إحدى الشركات الإباحية المعروفة، وهو ينشر في نهاية المطاف على شبكة الإنترنت ويمكن الحصول عليه من قبل أي شخص. هل تستدعي تلك الحالة موقفًا أخلاقيًا مختلفًا عن المواقف التي يتم اتخاذها في الحالات الطبيعية؟ هل الممثلون والكاميرا وشركة الإنتاج والجمهور، عناصر جديدة تستدعي مناقشة مختلفة عن المناقشات السابقة؟ الكثير من أصحاب الموقف النسوي سيردون بالإيجاب عن هذا السؤال. الكثير منهن يجادلن بأن التصوير الجنسي الإباحي لأمرأة يضفي نوعًا من التدهور على وضع المرأة يتجاوز البعد الجنسي. بعبارة أخرى، المشكلة في الحالة السابقة لا تتمثل في الجنس في حد ذاته، بل في المواد الإباحية والكيفية التي تصور بها المواد الإباحية النشاط الجنسي. كيف تذهب الحجج في مثل هذا الموقف؟ لنلقِ نظرة على ثلاث حجج من هذا النوع ونحاول تقييمها.

ثلاث وجهات نظر نسوية للمواد الإباحية

سوف افترض فيما يلي نوعًا من الألفة العامة من جانب القارئ مع مجال المواد الإباحية. سأكون مهتمًا بالمواد الإباحية البصرية (أي من النوع المرئي لا المقروء)، بما في ذلك الصور الثابتة الفردية (للرجال والنساء) والأفعال الجنسية التي تشمل شخصين (أو أكثر) والصور المتحركة (أشرطة الفيديو، أفلام). سوف افترض أيضًا أن القارئ يعرف أن المواد الإباحية مجال واسع التنوع لتلبية كافة الأذواق الجنسية، على الرغم من أن بعض الأشكال تكون سائدة على نحو أكثر من غيرها.

2 تم اختصار مضمون هذا الجزء والتركيز على المعنى الذي يؤكد عليه المؤلف. ولن يحدث هذا الاختصار خللًا في فهم مقصده. المترجم

تدعي النسويات المناهضات للمواد الإباحية أنهن لا يناهضن الجنس، بل ينتقدن ما يترتب على المواد الإباحية من نتائج تنعكس على وضع المرأة في المجتمع. إساءة المعاملة ضد النساء، ارتفاع معدلات حوادث الاغتصاب، والمساهمة في خلق مناخ يؤثر على الحقوق المدنية للمرأة؛ كل هذه نتائج تسهم المواد الإباحية في ترسيخها داخل المجتمع، وهي تمثل العناصر الرئيسة للموقف النسوي الناقد للمواد الإباحية: الإباحية تضر المرأة، إما لأنها تشكل ضررًا أو لأنها تؤدي إلى ضرر، للمجتمع في عمومه أو للمرأة على وجه الخصوص (MacKinnon 1993, 1997; Langton 2009, es). أما الانتقادات التي أوجهها أنا فهي مختلفة، لأنها مستوحاه من كانط. سأقوم الآن بشرح هذا النقد وفحصه مستدعيًا ثلاثة آراء تؤيده: جوديث هيل، هيلين لونجينو، وآن جاري.

تدعي جوديث هيل Judith Hill أن انحطاط الوضع الإنساني مرتبطة بتخفيض الحالة الأخلاقية للشخص: يعتمد هذا الموقف على التحليل الذي قدمه كانط للتشيؤ. ينطوي الانحطاط على طريقة يتعامل المرء من خلالها بوصفه وسيلة فقط، أو كما لو أنه ليس غاية في نفسه، كما لو كان رتبة المرء المنحط أقل في سلم الإنسانية (1991، 64). لكنها تؤكد أن الشرط الرئيس للانحطاط يتمثل في ضرورة أن يكون المرء مدركًا لذلك بنفسه أو من خلال الآخرين «يحدث التدهور مع خلق انطباع عام بأن الشخص يُعامل على أنه شيء أقل من إنسان» (1991، 64). يمكننا أن نرى على الفورأحد النتائج غير المنطقية لهذه النقطة، وهي أن بعض الأعمال التي يمتهنها البعض قد تؤدي إلى أهانتهم من بعض الأفراد غير المسؤولين: إذا استأجر أحدهم شخص ما للعمل لديه، وقام بالتعامل معه بشكل مهين أو إجباره على العمل بطريقة أقرب إلى الحيوانات، ومع ذلك لم يدرك أحد هذه الحالة كما لم يعترض الشخص المستأجر أو لنقل لم يدرك هذا الوضع المهين. وفقًا لهيل، فإن هذا الشخص لا ينطبق عليه تعريف الانحطاط. الحقيقة أن هذا ادعاء غير قابل للتصديق. خلافا لبعض النسويات الأخريات المناهضات للمواد الإباحية، لا ترغب هيل في إدانة الصناعة الإباحية كلها ولكن فقط ما تسميه «إباحية الفريسة»، وهي تشير إلى الحالات التي تنحط فيها النساء داخل النشاط الجنسي، أي، (أ) الحالات التي تعامل فيها المرأة من قبل رجل (أو من قبل امرأة أخرى) بوصفها وسيلة للحصول على المتعة الجنسية، في حين لا يتم الاعتبار بمتعتها أو رغباتها أو سلامتها، و(ب) الحالات التي لا تخضع فيها المرأة لمثل هذه المعاملة، لكن يحتل فيها الرجل مكان الصدارة دائمًا. وعلاوة على ذلك، تقدم المواد الإباحية الضحية كشكل من أشكال النشاط الترفيهي. لا يتضمن العمل أي تلميح يفيد بأن المرأة تعترض على طريقة معاملتها، وفي كثير من الأحيان لا يوجد أي تلميح أيضًا بأن المرأة قد تكره مثل هذا المعاملة.

ولكن ما هي «إباحية الفريسة»؟ وفقا لهيل، ثمة شرطين يميزان هذا النوع من الإباحية. أولاً، يجب تصوير النساء بشكل منحط، على النحو الذي تم توضيحه أعلاه. ثانيًا، يجب ألا يكون هناك أي تلميح بأن التصوير خاطئ. دعونا نقيم هذه الوجهة من النظر. حالة هيل الأولى غير واضحة لأنها تميزها بطريقتين

مختلفتين. الأولى هو ما نجده في (أ) أعلاه: ألا تؤخذ رغبات المرأة في الحسبان. يتمثل الثاني في «التصوير الإباحي للضحايا: صور النساء المقيدة، الضرب، الاغتصاب، التشويه، والتسول لمزيد مما سبق أو التوسل للفاعل بإنهاء الموقف» (1991، 68). هذا التوصيف يختلف عن الأول. التقييد والضرب والاغتصاب والتشويه هي أمور بعيدة كل البعد عن النشاط الجنسي الذي لا يستجيب فيه الرجل لمتعة المرأة. لا يشمل أحدها الآخر: عدد قليل جدًا من النساء، إن وجدت، يرغبن في أن يتم تشويههم، وضربهم، واغتصابهم، على الرغم من كونهم مقيدين ومكممين.علاوة على ذلك، لا يكاد المرء يجد المشاهد التي تصور هذا السلوك في المواد الإباحية. لذلك سأضع جانبا هذه الاتهامات ضد المواد الإباحية. لاحظ أيضًا كيف يجب ألا يتطابق التوصيفان. يمكن للرجل أن يحقق رغبة المرأة في أن تكون مقيدة ومكممة حتى لو لم تكن فاعلة. على العكس من ذلك، يمكن للرجل ممارسة الجنس بطريقة ما مع امرأة على الرغم من عدم رغبتها في هذا النشاط (لا يعني عدم الرغبة عدم الموافقة على الطريقة).

لكن من الصعب معرفة ما إذا كان الرجال يميلون للأنانية بالفعل في المواد الإباحية و[انهم يستخدمون المرأة بالفعل على نحو أداتي بحت. بالتأكيد يظهر الرجال في الأفلام الإباحية على أنهن يتمتعن جنسيًا بالنساء، لكن النساء، أيضًا، يصورن وهن يتمتعن بالرجال. وعلاوة على ذلك، تطورت صناعة المواد الإباحية في وقتنا الراهن لدرجة تجاوزت معها هذا المعنى، وربما يكون ذلك بسبب ضرورات تجارية بحتة، لأنها موجهة إلى الجنسين على سبيل المثال، وقد جاء هذا الإدراك في وقت متأخر نسبيًا. لذا فإن تصوير النساء على أنهن يستمتعن بالنشاط الجنسي أكثر يبدو أكثر قبولًا هذه الأيام من ذي قبل. وهذا لا يعني أنه لا توجد صور إباحية مهينة للنساء. في بعض الأحيان يظهر ممثل ما ذكر يتحدث إلى المصور حول مدى إثارة المرأة التي هو على وشك ممارسة الجنس معها. يتحدث الاثنان كل منهما للآخر عن المرأة. توجد المرأة أمام الرجل ولا أحد يسمع صوتها في هذا الحوار. هذه صور تظهر المرأة على أنها مجرد شيء ماثل أمام الرجل أو موضوعًا خالصًا لمتعته، وبالتالي فهي مهينة: إنها تحط من قدر المرأة بإقصاء فاعليتها على نحو كامل. سيكون الأمر مختلفًا في حالة ما إذا كانت المرأة تفعل ذلك من أجل الكاميرا.

دعونا نتحول إلى وجهة نظر أخرى حول المواد الإباحية وعلاقتها بانحطاط المرأة، تلك الخاصة بهيلين لونجينو. تتشابه وجهة نظر لونجينو مع وجهة نظر هيل وتختلف معها في الوقت ذاته. وهي تعرّف «المواد الإباحية» بأنها «تمثيلات صريحة أو لفظية للسلوك الجنسي». المواد الإباحية، لها صفة مميزة «صورة مهينة ومحطة لدور الأنثى ومكانتها الإنسانية... مجرد كائن جنسي يتم استغلاله والتلاعب بها جنسيًا» (1991، 85). في المواد الإباحية لا يتم تصوير النساء في المواد الإباحية على أنهم يمتلكون رغبات جنسية خاصة بهم... وإذا تم تمثيل المتعة الجنسية للمرأة، فهي تمثل فقط كوسيلة لمتعة الرجال، وليس كطرف خاص بها. علاوة على ذلك، ووفقًا للونجينو، يمكن أن تُصوّر المادة الجنسية الصريحة ما تصوره المواد

الإباحية دون إشكالية أخلاقية، لأن هذه المواد يمكن أن تستكشف آثار مثل هذه المعاملة المهينة لضحاياها (الأفلام الوثائقية على سبيل المثال). غير أن المواد الإباحية ترسخ أو توصي بتلك المعاملة المهينة للمرأة وليس فقط بتمثيلها (1991، 86-87). المعاملة المهينة، وفقًا للونجينو، «تتضمن ضرر مادي أو إساءة في المعاملة وإكراه جسدي أو نفسي. بالإضافة إلى ذلك، يظهر التشيؤ في السلوك الذي يتجاهل أو يقلل من الاهتمامات الحقيقية والرغبات والخبرات لواحد أو أكثر من المشاركين بأي شكل من الأشكال المهينة. وأخيراً، فإن الشخص الذي اختار أو وافق على التعرض للإيذاء أو الإساءة أو التعرض للإكراه لا يغير من الطابع المهين لمثل هذا السلوك» (1991، 87).

هناك ادعاءان يميزان رؤية لونجينو عن هيل. الأول هو الادعاء بأنه إذا تم تصوير متعة المرأة، فإن ذلك لا يكون من أجلها، بل كوسيلة لمتعة الرجال. الادعاء الثاني يتمثل في أن المواد الإباحية تؤيد أو ترسخ من المعاملة المهينة للنساء. قبل الوصول إلى هذين الادعائين، من المهم فهم ما تعنيه لونجينو بـ«الانحطاط». لسوء الحظ، ما تقوله لونجينو غير مفيد لفهم معنى الانحطاط. في الصور الإباحية لا يواجه المرء «الأذى الجسدي أو الإساءة»، وفي الواقع، ليس من الواضح كيف يمكننا العثور على هذه الأشياء ببساطة من خلال مشاهدة المواد الإباحية. بالنظر إلى مشهد جنسي يتم داخل غرفة النوم بين رجل وامرأة، هل يغدو ذلك مثالًا على الإكراه البدني أو النفسي؟ هل المرأة المصورة تتعرض للقهر والإيذاء حتى تفعل ما لا تريد فعله؟ كيف لنا أن نعرف؟ هل يمكننا أن نأخذ صمتها كعلامة على الاستسلام للإكراه؟ لكن قد يعني الصمت أن المرأة تستمتع بتلك الحالة وأنها تتشوق انتظارًا لقدوم الرجل.

وعلاوة على ذلك، يعد ادعاء لونجينو بأن السلوك المهين هو «السلوك» الذي يتجاهل أو يقلل من الاهتمامات الحقيقية والرغبات والخبرات لواحد أو أكثر من المشاركين بأي شكل من الأشكال المهينة، غير واضح. ما هي تلك الاهتمامات «الحقيقية»؟ إن الصور الجنسية غالبًا ما تظهر جميع من فيها وهم في حالة استمتاع. يبدو أن كل اهتماماتهم الجنسية مصورة. هل تقصد لونجينو هنا أن الصور الجنسية لابد أن تظهر اهتمامات غير جنسية مثل مناقشة قوانين المرور، التعليم العام في الولايات المتحدة، أو مؤشرات أسواق المال؟. لننتقل إلى الادعائين اللذين يميزان رؤية لونجينو عن هيل. الأول هو أن تصوير متعة المرأة، يكون من أجل الرجل لا من أجل المرأة. ومع ذلك، مرة أخرى، يصعب تحديد ذلك. كل تفاصيل المتعة الجنسية في الأفلام الإباحية تتعلق بأطراف العلاقة كافة. من الصعب أن نتأكد من هذا الزعم فكيف لنا أن نعرف أن متعة المرأة كما تظهر في الأفلام الإباحية تعبر عنها أم تكون من أجل شخص آخر.

نأتي الآن إلى الادعاء الثاني الأكثر أهمية الخاص بأن المواد الإباحية تعمل على ترسيخ ودعم انحطاط المرأة. (من الصعب تقييم هذا الادعاء دون أن نعرف على نحو جيد الكيفية التي تتعرض بها المرأة

للانحطاط)، لكن دعونا نفهم ذلك من منطلق فكرة الاستخدام التي تؤكد عليها هيلين. أفضل طريقة لفهم ذلك تتمثل في استخدام الفن كحالة من خلال التمييز بين التمثيل أو التصوير من ناحية، والترسيخ أو اعتماد منظور تصويري معين، من ناحية أخرى. على سبيل المثال، يظهر فيلم انتصار الإرادة للبني ريفنستاهل Leni Riefenstahl الحزب النازي ومعه هتلر بمظهر جيد، وبالتالي يعمل الفيلم على تأييد ما يمثله. الأمر ذاته يمكن أن نلاحظه مع قصيدة جون ميلتون الفردوس المفقود، حيث يصور ملتون الشيطان على نحو مغر يثير الالتباس، هل الشيطان شرير بالفعل؟ باختصار، غالباً ما تعتمد الأعمال الفنية على وجهة نظر صانعيها من حيث تأييدهم لفكرة معينة يتم تمثيلها داخل العمل. وعلاوة على ذلك، لمعرفة طبيعة الفكرة التي يرسخها العمل الفني، لأن العمل يحتاج إلى تفسير (Gaut 1998). بمقدوري أن أؤكد أن إحدى الطرق الحاسمة لتفسير الفن تتمثل في فهم وجهة النظر التي يدعمها العمل الفني.

لا شك أن المواد الإباحية تجسد أفعالاً جنسية ممتعة وتلقي قبولًا من القائمين بها. كما أنها تثير الرغبة من أجل إثارة المشاهد (هذه هي الفكرة، قبل كل شيء). الفكرة هي ما إذا كان ذلك يمثل نوعًا من الانحطاط بالفعل لأي طرف من أطراف هذا النوع من المواد الإباحية. الجزء الأكبر من المواد الإباحية يصور الرجال والنساء المشاركين في جميع أنواع الأفعال الجنسية لا يبدو ذلك مهينًا بشكل خاص. على الرغم من محاولة لونجينو السابقة، إلا أن القول بأن المواد الإباحية تؤيد انحطاط المرأة لا يبدو صحيحًا، لسببين. أولهما، لترسيخ الانحطاط من خلال المحتوى الإباحي، يجب أن يكون المحتوى ذاته منحطًا، وأنا أزعم أنه لا يوجد أي انحطاط في المحتوى، حتى يتم ترسيخه «الجنس ممتع والبعض يريد المشاهدة للحصول على المتعة، هذا كل ما في الأمر» ويبدو أن ما تعمل المادة الإباحية على ترسيخه لا يتجاوز قيمة المتعة المتضمنة التي يحاول المشاهد الحصول عليها «يتمتع الرجال والنساء في الفيلم بممارسة الجنس. لسان حالهم: الجنس جيد ونريدك، المشاهد، أن تستمتع به أيضًا.» هذه رسالة لطيفة، رسالة واحدة ذات مضمون عالمي، وتغطي معظم المواد الإباحية من الجنسين المختلفين (بالطبع، قد تعتمد بعض الأفلام الفردية، والمجلات، أو مواقع الإنترنت على وجهات نظر محددة تجاه محتواها).

لهذا السبب لا تعمل المواد الإباحية على تدعيم محتواها، إلا من جهة التأكيد على المتعة الجنسية. كما أنها لا تساعد على انحطاط المرأة أو ترسيخ فكرة أنها مجرد وعاء لتفريغ شهوة الرجل. رسالة لمواد الإباحية أن الجنس أمر جيد، ليس إلا.

دعونا ننتقل إلى آراء آن جاري. مثل هيل ولكن على العكس من لونجينو، لا تعتقد جاري أن كافة أشكال المواد الإباحية مهينة. فقط تركز جاري على «بعض المواد الإباحية للأفلام التي تنقل رسالة مفادها أن جميع النساء يرغبن حقًا في التعرض للاغتصاب، التلذذ بالعنف...هذا المحتوى لا يتوجب الاعتقاد فيه. ومن خلال

تصوير النساء بهذه الطريقة، فإن محتوى الفيلم يحط من شأن المرأة» (1984، 314). ليس واضحًا في تحليل جاري شكل الانحطاط الذي تفعله مثل هذه المواد (على الرغم من ادعاء جاري أن «انحطاط شخصا ما ... يعني تخفيض رتبته أو مكانته في الإنسانية»؛ أو مدى انتشار هذا المعنى في المواد الإباحية. ومن غير الواضح أيضًا ما إذا كانت جاري تعتقد بأن الانحطاط يقتص فقط على مشاهد الاغتصاب والعنف هذه أو ما إذا كان يتضمن مشاهد أخرى. إذا كانت محصورة في مثل هذه المشاهد، فمعنى هذا أن المواد الإباحية لا تقدم الكثير من الانحطاط، نظراً لندرة مثل هذه المشاهد. دعونا نضع النقطة المذكورة أعلاه جانبًا للحظة وانتقل إلى ما يميز وجهة نظر جاري. قلق غاري ليس قاصرًا فقط على النساء اللاتي يظهرن على الشاشة، ولكن متعلق بالنساء كافة، حيث تدعي أن المواد الإباحية تحط من قدر كافة النساء. حجة جاري تتكون من ثلاث نقاط. أولاً: تعمل المواد الإباحية على إرسال رسالة مهينة عن جميع النساء: «إذا اعتبر المرء أن النساء اللاتي يظهرن في المواد الإباحية يرمزن لكافة النساء، فإن أوصاف الفئة الأولى ستنطبق على الفئة الثانية» (1984، 316). ثانيًا: إذا افترضنا، جنبًا إلى جنب مع وجهات النظر التقليدية والجنسية حول النساء والجنس، أن الجنس أمر معيب وأن النساء السيئات فقط يمارسن الجنس والكثير منه، إذن سنربط النساء اللاتي يظهرن في المواد الإباحية بالنساء السيئات. وإذا نظرنا إليهن كرمز لكافة النساء، سنربط جميع النساء بالصفة السيئة. لكن لماذا يجب أن نقبل الافتراضات التقليدية حول الجنس والمرأة؟ يتمثل الجواب في الخطوة الثالثة من الحجة؛ ذلك لأن «في ثقافتنا نربط الجنس بالأذى الذي يلحقه الرجال بالنساء، ولأننا نفكر في دور الأنثى في الجنس كما لو كنا نفكر في جسم سيصاب بالضرر، ويمكننا أن نلاحظ انعكاس ذلك على الطريقة التي تعامل بها المرأة في المجتمع» (1984، 318).

لصياغة الحجة بإيجاز: بعض الأعمال الإباحية ترسل رسالة مفادها أن النساء يرغبن في التعرض للاغتصاب والإذلال ومن أجل إشباع رغبة الرجل. ولأن الجنس مرتبط بـ «الأذى»، فإن المواد الإباحية تعزز مناخ عدم احترام النساء من خلال التفكير فيهن كنساء سيئات. هذه النظرة مهينة للنساء. وبالتالي، تعمل المواد الإباحية على الحط من قدر جميع النساء.

يجب أن نطرح هنا سؤالًا حاسمًا: هل يعني هذا أنه بخلاف المشاهد التي يتم تصوير المرأة فيها، وهي تتعرض للاغتصاب والضرب والتشويه وما إلى ذلك، وهو ما يمكننا أن نتفق على أنه يحط من قدر النساء بالفعل، أن المواد الإباحية الأخرى التي لا تقدم نفس المحتوى لا تفعل ذلك؟ لا أدري صراحة الكم الذي تمثله تلك المشاهد بالنسبة إلى مجموع الأعمال الإباحية، لكن النتيجة التي يمكن أن نصل إليها أنه من غير المعقول أن نعتمد على تلك المشاهد في القول بأن المواد الإباحية في مجملها تعمل على الحط من قدر المرأة. كل شخص في النهاية يتعامل مع المواد الإباحية من خلال جلب القيم والمعتقدات الخاصة به إلى المشهد.

بالإضافة إلى ذلك، وهي نقطة على صلة بالمذكورة أعلاه، ليس هناك سبب للاعتقاد، كما تدعي جاري، بأن النساء في المواد الإباحية يرمزن إلى كافة النساء. لا يمكن بالتأكيد الزعم بأن أصحاب تلك الأعمال وصناعها يهدفون إلى ذلك، حتى الصور الجنسية نفسها لا تحمل هذا المعنى. الأمر أيضًا على القيم والمعتقدات الخاصة للمشاهدين. يمكن للمرء أن يتخيل ناشطًا متحمسًا يشاهد الأفلام الإباحية ويفكر قائلًا، «هذا افتراء. إنهم يظهرون كافة النساء على نحو سيء». لكن يمكن للمرء أن يتخيل بسهولة أن يقفز مشاهد آخر للمرأة نفسها على الشاشة قائلًا: «إنها مثيرة للغاية. يا له من رجل محظوظ». يجب على جاري أن يدافع أولا عن افتراض يزعم بأن مواقف المشاهدين واستجاباتهم للمواد الإباحية تكون واحدة، وهو افتراض غير متصور، لأنه واسع بطريقة مخيفة ولا يمكن التحقق من صدقه. ثمة شيء آخر، قد يفكر بعض الأفراد أثناء مشاهدتهم للمواد الإباحية في أمور سيئة تتعلق بوضع المرأة داخل الفيلم مثلًا، لكنهم ليسوا بالسذاجة التي تجعلهم يربطون بين ما يشاهدونه وبين النساء في العالم الفعلي. بل نجدهم يتفاعلون مع النساء طوال الوقت خارج سياق مشاهدتهم للمواد الإباحية بنوع من الاحترام الإنساني الطبيعي.

أخيرًا، ربما يكون الأجدر بالنسبة إلى وجهات النظر النسوية في المواد الإباحية إلى معالجة بعض التابوهات الاجتماعية المتعلقة بالمرأة بدلا من توجيه النقد وتركيزه على ما لاطائل منه. المشكلة الرئيسة تتمثل في وجهات النظر الاجتماعية للمرأة التي تعاملها ككائن أقل جنسية من الرجل، وأنها إذا أفصحت عن رغبتها بأي شكل من الأشكال، ستغدو إمرأة سيئة. لكن المواد الإباحية لا ترسخ فكرة غير موجودة، والوقف الأخلاقي منها يشبه موقف المجتمع عموما من مهنة ما هي في ذاتها جيدة لكنه يراها غير ذلك (حارس العقار مثلًا). المجتمع يشترك بصورة كبيرة في وجهات نظر محددة حول المرأة تحدد ما يتوجب عليها فعله وما لا يتوجب. المرأة الجيدة تفعل هذا والمرأة غير الجيدة تفعل هذا. هذا المعنى يحرم المرأة من الفاعلية الجنسية والمساواة مع الرجال. نحن نحتاج أكثر إلى انتقاد العديد من القيم الاجتماعية التي لا أساس لها من الصحة بدلًا من التركيز فقط على نقد الموادالإباحية (والبغاء).

التشيؤ في المواد الإباحية

وهكذا، لربط موضوعنا بفكرة التشيؤ والرغبة الجنسية التي أثيرت في وقت سابق من الفصل دعونا نحدد مجموعة من النقاط: (1) إذا كان أحد ما يعتقد في وجهة نظر كانط المتعلقة بالكرامة الإنسانية، ويقبل أيضًا وجهة نظره في الرغبة الجنسية، فينبغي عليه أن يعتقد في أن المواد الإباحية تجس جنسي لأنها د حالة من حالات التشيؤ الجنسي لأنها تحط من كرامة الإنسان، وتعمل على تجريده منها. ولكنه هذا الحط لا يتعلق بطرف دون طرف آخر، فهو ينطبق على المحتوى الجنسي في عمومه، بمعنى أنه لا يتعلق بالنساء دون الرجال أو العكس. (2) إذا كان أحد ما لا يعتقد في فكرة كانط عن الكرامة الإنسانية، ولا يقبل وجهة نظره

أيضًا في الرغبة الجنسية، عندها لا يوجد أي سبب للاعتقاد في أن المواد الإباحية تعمل على التشيؤ. وأخيرًا، (3) إذ كان ثمة شخص يعتقد في وجهة نظر كانط عن الكرامة الإنسانية ولكن لا يقبل وجهة نظره في الرغبة الجنسية، فإن لدى المرء أيضًا سببًا لعدم الاعتقاد بأن المواد الإباحية بوجه عام تعمل على التشيؤ.

يتوجب علي في النهاية أن أوضح الكيفية التي تعمل بها المواد الإباحية على تجسيد التشيؤ. على وجه التحديد، من الذي يشيأ من؟. بقدر ما يرغب أطراف اللقاء الجنسي في بعضهم البعض، فإنهم يشيئون بعضهم البعض. ومن ثم يقدمون أنفسهم كموضوع للتشيؤ قبل المشاهدين. وبقدر ما يرغب المشاهد في الممثلين أو المشاركين في العمل الإباحي، بقدر ما يعمل على تشيأوهم..في ضوء هذا الاستنتاج، هل هناك علاقة بين المواد الإباحية وانحطاط المرأة؟ أجل: يحدث ذلك فقط من جهة المشاهدين المحافظين من الرجال أو النساء. وباختصار، الطريقة التي يبد المء بها عالمه، تسهم بشكل أساسي في تشكيل منظوره إلى المواد الإباحية.

المناقشة التي قدمناها أعلاه دارت على وجه التحديد حول علاقة المواد الإباحية بمسألة الانحطاط من جهة تصوير النشاط الجنسي. لم تكن حول الطريقة التي يتم التعامل بها بين القائمين على صناعة المواد الإباحية. لا شيء في المناقشة أعلاه يحول دون الادعاء بأن العديد من النساء يتم إجبارهم على العمل أو أنهم يلقون معاملة سيئة على أرض الواقع تمتهن من كرامتهم. باختصار، لا شيء يدور في المناقشة السابقة حول كيفية إنتاج المواد الإباحية.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019

All rights reserved © 2019